المقدمة

كيف بدأت قصتى مع هذا الملف؟ ربما هى الصدفة وحدها التى جمعت بينى وبينه، فأنا أزهرى وصحفى كنت أعمل فى جريدة ذات توجه إسلامى وأكتب فى موضوعات متنوعة، لكن ساقتنى الظروف سوقًا نحو هذا الاتجاه.. وحتى الآن لا أعرف السبب!!

تعرفت على صديقى الباحث العزيز سامح فوزى، الذى كان يعمل صحفيًّا فى تلك الفترة فى جريدة وطنى، كان يزور جريدتنا يقلب فى الأرشيف، كان يبحث فى ملفاتها يبدو أنه كان منشغلا بعمل بحث ما. تنوعت بيننا اللقاءات والحوارات، وكان هو بوابتى إلى ذلك المجهول..

بدأت علاقتى مع الكثير من الأقباط، محاورة ومعايشة، كنت أتساءل وسامح يجيب، كان متحمسًا لى وأنا اقتربت منه إنسانيًّا بشكل كبير وجمعتنا لقاءات وخبرات كثيرة . وكانت البداية مع سامح، لكن المسيرة تعمقت أكثر عبر العديد من الشخصيات المهمة مثل الأنبا موسى أسقف الشباب، والدكتور رفيق حبيب، وسمير مرقس، والدكتور أندريا زكى، ونبيل صموئيل، وحنا جريس، وسميرة لوقا، وهانى لبيب، وغيرهم العشرات من المثقفين ورجال الدين والشباب والشيوخ والسيدات؛ حيث خبرت تلك التجمعات ووعيت مدى تنوعها وتعددها، ليظل هذا التنوع والتعدد داخل الجماعة القبطية هو الضمانة الرئيسية للمواطنة؛ لأنه إذا تحول الأقباط إلى جماعة واحدة مصمتة ذات لون واحد سيكون الخطر الكبير. وما يلفت النظر كثيرًا للمتأمل فى الأقباط هو الوزن النسبى لقطاع المهنيين من مهندسين وأطباء وصيادلة ومحاسبين وأغلبهم لهم من الأشغال الخاصة والمكاتب الاختصاصية المهمة الحاضرة فى صلب الحياة المصرية وركيزة نشاطهم الخبراتى والمادى مع كل المجتمع؛ وبالتالى هم معنيون بشكل أكبر بالاختلاط وعدم التمايز؛ لأن هذا ينعكس بالإيجاب عليهم، وهم ضمانة كبيرة للتعايش والتسامح.

كان يستوقفنى كثيرًا مشهد حفل الإفطار السنوى الذى أحضره داخل الكاتدرائية بالعباسية.. وأنت داخل إلى الكاتدرائية فى لحظة الغروب وأنت صائم؛ ينتابك شعور غير عادى.. فأمامك مسجد النور يرتفع بشموخ وبجواره الكاتدرائية ببنائها الزاهى.. كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه، ويحكم الله بين الجميع يوم القيامة وهو أحكم الحاكمين.

كان يلفت نظرى أنه إفطار وحدة، لكن كل واحد يفطر وحده. فقد حرص المنظمون على إبراز الطابع الرسمى، وقاموا بالفصل بين ممثلى المؤسسات بوضع لوحات مكتوب عليها أسماء الإدارات والهيئات، مثل رجال القضاء وقيادات النيابة والداخلية، وأمن الدولة، والحراسات الخاصة ورجال الأعمال، والفن والإعلام، والمجتمع المدنى، ورجال الدين الإسلامى، والطوائف الأخرى، ورجال الكنائس والطوائف والإدارة.

كانت أزمة وفاء قسطنطين فى أوجها عندما اقتربت من عالم الكنيسة، والمظاهرات تملأ ساحة الكاتدرائية، المشهد كان مرعبًا، ويبدو أن قوة الحدث تدفع الأمور بشكل متسارع نحو الهاوية. ذهبت إلى حيث كان الشباب غاضبًا إلى حد الاحتقان، يبدو أن خلف هذه المشكلات ما هو أعمق وأسخن..

كان هناك من يحاول التهدئة، وهناك من يصلى، وهناك من يوزع الطعام، وكانت لحظة السكون الشديدة عندما كان يشرع الأنبا يؤانس فى الصلاة ..كان يحط الهدوء .. يرى الدكتور سليم العوا أن حدث وفاء قسطنطين هو حدث فارق.. قبل وفاء وبعد وفاء. وعبثًا حاولت أن أقابلها فى الدير الذى تتواجد فيه، وأكثر من مرة أحظى بوعد ثم يتبين لى أن الملف برمته بيد البابا الذى يمنع أى إنسان سوى رجال الدين من الاتصال بها، وحتى الآن تظل حادثة وفاء قسطنطين حدثًا فريدًا ومهما، وتتحمل فيه الجهات الكنسية عبئًا كبيرًا، تراكماته لن تنتهى، وتداعياته لن تتوقف.

ثم جاءت أيضًا، أحداث السى دى والمسرحية التى مثلت فى إحدى الكنائس والتى تسببت فى إشعال مظاهرات أخرى فى الإسكندرية، وتطور الأمور أكثر مما ينبغى.. طالب البعض من البابا أن يعتذر لكنه رفض بشدة، كانت الحجة أن البابا إذا اعتذر مرة فإنه مطالب بتكرار ذلك فى كل مرة، وهو ما يجرح مقامه عند البعض، فى حين الاعتذار وهو قدر الكبار دائما، بل ويرسخ مقام المودة بين الإسلام والمسيحية المؤسس على الجدل بالتى هى أحسن بشرط ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق.. وفى تلك المواقف وغيرها كان يتراءى لى كثيرًا الفرق

بين سلوك الناسك، وسلوك الزعيم، بين من يترك رداءه للمتعلقين به، ومن يتشبث بالمواقع حتى لا يتمدد الخصم، من يتمسك بالبشارة، ومن يدخل فى تضاغط سياسى واجتماعى من أجل المكتسبات. إنه سيان كما يقول الأب «متىّ المسكين» أن تطلب الكنيسة القوة من السلطان الزمنى، أو تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمنى؛ لأن فى الأولى خروجًا على اختصاص الكنيسة، وفى الثانية خروجًا على منطق المسيح ووقوعًا فى دينونة الله، إن الحض على الاستهتار بسلطة الدولة متمثلة فى السلطان الزمنى، هو تشجيع للشر؛ لأن الكنيسة لا ينبغى أبدًا أن تأخذ موقف العداء من الدولة والوطنية، ومصدر الخطر أن الذين يلقنون الدين للجميع يبنون الفرقة والتحيز والانقسام والتكتل .. هكذا تكلم الناسك المعتزل «متىّ المسكين».

كنت فى كل حدث أرانى مدفوعًا بواجب ما، وهو إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولم يكن أمامى سوى الأنبا موسى أسقف الشباب أحاوره، وهو يمتلك من الود والسماحة والصفاء رصيدًا يمكنه من التعامل مع الأمور بحكمة، لم يكن صداميًّا، ولا انعزاليًّا، كان بعد كل حوار يتصل بى يشكرنى على موضوعيتى البالغة على حد تعبيره.

وفى أحد الحوارات تطرق نيافته إلى الحق القانونى الذى تمتلكه الكنيسة من أجل تمكينهم من النصح لمن يسلم، ورد على نيافته المستشار طارق البشرى مناقشًا ومحاورًا فى حواره معى عن الولاية السياسية التى تمارسها الكنيسة على الأقباط، وأن ما حدث يعد سابقة وخرقًا للقانون والدستور، ودارت رحى الحوارات والمواقف.

أثناء عملى وتجوالى كانت تترسخ لدى قناعات أن للأقلية عقلا خاصًّا، وكذلك للأغلبية، بل وللدولة عقلا، وثمة سياقات معينة حينما تتصل العقول تؤدى إلى عقل الطائفية ومنطقها الذى يحكم المشهد. يقول اللاهوتى البارز چورچ حبيب بيباوى تنحو عقلية الأقلية إلى أحلام الرؤيوية التى تتمثل فى تدخل الله ودعمه، هذه الأحلام تَسهُم فى انتهاء الضغوط، وخلق مجتمع جديد تختفى فيه فكرة التمييز الدينى. من هنا، فإن هذه الأحلام الرؤيوية، تعكس رؤية دينية ذات دلالات سياسية واجتماعية وثقافية. إنها تمثل هروبًا من الواقع الحالى بضغوطه؛ إلى مستقبل مثالى بأحلامه. وهنا عندما تنقل الأقلية فكرها وحياتها من العالم نفسه، إلى العالم الآخر، والمستوى السمائى، فإن التاريخ يتوقف تمامًا ويصبح الفكر محصورًا فيما هو غير قابل للتحليل والدراسة.

ويضيف اللاهوتى د. أندريا زكى: إن تزايد الضغوط على الأقلية يجعل من المعجزات

العامة تأكيدًا على أن الله مع هذه الجماعة، وأنه يتدخل لصالحها. فحينما تتعرض الأقلية لضغوط تشكك فى إيمانها وعقيدتها وتهددها بالزوال، تأتى المعجزات العامة لتقدم يقينًا للأقلية بالحماية الإلهية. ولعل الحديث المتكرر عن اختبارات فردية وجماعية لظهورات ومعجزات لقديسين فى النصف الثانى من القرن العشرين تعكس هذه السمة.

ويرى أن واحدة من أهم المتناقضات التى تشكل عقل الأقلية، هو الهوية الدينية. ففى الوقت الذى تحتاج فيه الأقلية إلى دفع المجتمع نحو هوية قومية، تنزلق هى إلى الاحتماء بالهوية الدينية، هذا التناقض يخلق فكرًا مزدوجًا يؤثر فى مصداقية الانتماء القومى. ومن جانب آخر، تشعر الأقلية دائما بخطر الذوبان القومى، مما يجعلها تؤكد على هويتها الدينية. هذا الموقف المُعقد يحُدث بلبلة، وفى بعض الحالات قد يُشجِّع انتماءات دينية ذات توجه متطرف، وتستخدم الهوية الدينية لأسباب سياسية.

ويستمر القس الدكتور فى دراسة عقل الأقلية حين يلجأ إلى الانغلاق اللغوى الذى يشكل ثقافة فرعية. وترى الأقلية فى استخدام لغة خاصة نوعًا من التميز، لكن هذا التميز يؤدى فى مرات كثيرة إلى نوع من الانغلاق وسوء الفهم. ولعل خير دليل على هذا الانغلاق اللغوى هو الطريقة التى تقدم بها الكنيسة عقيدتها عن الثالوث فى مجتمع إسلامى. فنحن نعرف أن هذه العقيدة تبلورت صياغتها اللاهوتية بوضوح فى القرن الرابع الميلادى، وتم استخدام تعبيرات مثل «أقنوم»، للتعبير عن وحدانية الله المتعدد فى ذاته. ومع إن هذه المفردات اللغوية (مثل أقنوم) كانت ذات دلالة فى الوقت الذى استخدمتها الكنيسة، فإن تغيير البيئة الثقافية وقيام الحضارة العربية الإسلامية، كان يتطلب من الكنيسة إعادة صياغة نفس الفكرة اللاهوتية فى مفردات جديدة. فاللغة تلعب دورًا مهمًّا فى صياغة التواصل؛ لذلك فالكنيسة تحتاج أن تتكلم لغة يفهمها العامة. إن خلق ثقافة خاصة منغلقة، يؤدى إلى الانعزال والتغريب والتهميش؛ لذلك فالكنيسة مدعوة لإعادة النظر فى اللغة التى تستخدمها؛ لكى تكون قادرة على بناء الجسور، والتعامل والتواجد الخلاَّق.[1]

هناك اتجاه داخل عقل الأقلية يتوهم أحيانًا أن الانتماء للديانة المسيحية الأرثوذكسية منتج بالضرورة لخصوصية ثقافية جزئية مختلفة عن الثقافة الغالبة، وأن هناك ربطًا متلازمًا بين الدين

(١) الدور التجديدى للمسيحيين العرب نحو فكر لاهوتى عربى للمشاركة ـ الدكتور القس/ أندريا زكى أسطفانوس، دراسة غير منشورة.

والخصوصية، وطبيعى فى مثل هذه الأجواء أن تزدهر أفكار حول النقاء العرقى، والدمج بين القومية والديانة، والكنيسة والهوية، باعتبار كل هذه الصور تعبيرًا عن جوهر واحد أصيل، يجسده غبطة البطريرك ذاته، جوهر واحد، يعطى للنفس أمنًا، وللمكافح مشروعية، وللناسك عمقًا، وللانعزال مبررًا، وللذاكرة نشوة، وإذا كانت هناك هوية وقومية وديانة ومؤسسة، فهناك هموم ومطالب، وبالتالى أجندة ومسألة، وجدار عال يحمى الضحية من الجانى، والأزمة الحاصلة أن بعض هذا التوجه يقدم فى عمقه بوصفه مضادًّا للتوجه العربى الإسلامى، ويعكس محاولة بناء هوية قومية خالصة تتناحر مع المحاولات التى يتبناها التيار السائد المصرى والعربى، يتجسد هذا التناحر أكثر عند بروز المشاكل القومية والإقليمية والتشريعية والقانونية؛ حيث تزيد الفجوة، وتتعمق المواجهة، وفى الوقت الذى تتصور فيه أنها تحمى نفسها بسياج الانعزال عن المحيط، فهى فى الواقع تعرض نفسها لشدائد ومخاطر أكبر.

فالجماعة المسيحية أسست وضعها باعتبارها الجماعة المصرية الأصلية والممتدة بدون انقطاع تاريخى، وبهذا تعود مسألة الهوية، «ففى الهوية المصرية ترى الجماعة المسيحية أن لها ميزة تاريخية، أما فى الهوية العربية والإسلامية، فتغيب هذه الميزة. ولكن المشكلة ليست فقط فى مسمى الهوية، ولكن المشكلة الأكبر فى البحث عن التميز الفعلى، ثقافيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا، فالجماعة المسيحية وهى تشكل تلك الحالة من الوعى، كانت تبنى لنفسها تصورًا مختلفًا عن تصورها للآخر، بحيث تصبح مميزة عن الآخر، بصورة تمنع من ذوبان الطائفة فى الوطن، بعد أن أصبحت الطائفة هى الوطن البديل، وربما الوطن الأصلى.

وأزمة الهوية تمثل جزءًا أساسيًّا من أزمة العلاقة بين المسلم والمسيحى فى مصر، فهى وجه من وجوه المشكلة، وربما تكون الوجه الأهم، ومع ذلك فإن الجماعة المسيحية فى مصر تتجه إلى تأكيد هويتها المصرية الخالصة ورفضها للهوية العربية والإسلامية، وكلما تزايدت المشكلات نجد توجهًا متزايدًا نحو فصل هوية الجماعة المسيحية عن الهوية العربية والإسلامية، مما يزيد الفجوة مع الجماعة المسلمة. ومع تزايد تلك الفجوة تزيد المواجهات بين المسلم والمسيحى، ولكن الجماعة المسيحية تتجه لتعميق تلك الفجوة، رغم أن ذلك يعرضها لمواجهات أشد. وتندفع الجماعة المسيحية فى طريق يعرضها لمخاطر كبيرة، وتتصور أنها تحمى نفسها من مخاطر تتعرض لها[1]».

(١) مسيحيو مصر.. الهروب إلى الهاوية ـ د. رفيق حبيب.

وللأغلبية عقل، سماته فى الكمية، وتوهم أن الوزن يلعب وحده دورًا، وتجاهل أن قيمة الوزن لا تظهر إلا فى السبيكة، التى تتضام مع أوزان وأنواع أخرى، فيصبح للمركب خصائص جديدة تختلف عن خصائص الانفراد، فمصر مجتمعة تختلف عن مصر المنفردة، وهذا أمر تدلل عليه وقائع كثيرة ـ فلو تكلمنا داخل الخبرة المصرية فيما يتعلق بالبنية الأنثروبولوچية المشتركة، والقواعد الاجتماعية الموجهة، وحضور الدين كمجسد أعلى للقيم ..هل كل هذه الموحدات تركت مجالا للانفراد بأى خواص لأى طرف مصرى ليختلف عن الآخر بصرف النظر عن الدين أو الأصل؟ وإذا حضر لدى الأغلبية الوزن فقط ذهب التعاقد، وانكمش التعايش، وتضاءل الاجتهاد، وأكثر فترات الفقه الخاص بغير المسلمين ازدهارًا مرتبطة بمدى اتساع فكرة التعاقد، بل وحاليًا عندما اجتهد وأصَّل الأساتذة البشرى، والعوا فى مقاربات غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، كان ذلك فى أوج علاقات الحوار والتشارك بين النشطاء الأقباط والإسلاميين .وتاريخيًّا كان عقل الأقلية عبر التاريخ مبنيًّا على التعاقد، حق الحضور للأقلية مقابل حق المرجعية للأغلبية، حق المساواة والتمثيل، مقابل الهوية، أى أن المطلبية القبطية كانت تتمحور حول فكرة المساواة الكاملة. هل صار المطلوب الآن أمرًا آخر بخلاف المساواة؟ لكن هل قدمت الأغلبية القراءة والبديل الذى يستوعب هموم وهواجس الأقلية؟ يجزم عدد من المفكرين الإسلاميين أن دورهم انتهى فى تمهيد وتعبيد الطريق للتعايش والمساواة الكاملة، فى تلك اللحظة يتبين أن أحد أهم إشكاليات التعايش فى مصر، أن يكون للجماعة الوطنية أكثر من وعى لمنظومة وجودها وحركتها، فما يراه المسلمون مؤسسًا للعدل والمساواة من الخطر أن يكون عند الطرف الثانى داعما للظلم والانتقاص، والعكس أيضًا، فنظرة كل طرف للأمر هو مؤشر فى نظرة الطرف الآخر، وبالتالى من الواجب توضيح أن انشقاق الوعى يقود لانشقاق المصالح، وتلك هى عتبة الخطر الذى يجب ألا يتجاوزها الجميع.

فالتعايش بين المسلمين والمسيحيين فى مصر هو شأن مركب، بمعنى أن حالة التعايش الأساسية لم تنف وجود وعى جمعى سلبى، يمثل حالة النزاع والفتنة التى تعترض مسيرة تاريخه. ظل هذا الوعى موجودًا وقابلًا للاستدعاء فى أى وقت أو لحظات معينة، ومن ثم إذا كان فى الطرف الإسلامى أفكار وحركات متعصبة، فسنجد أنه مع التيار المسيحى المندمج ثمة وعى خاص وتيار مزج الشهادة بالعزلة وينتج سلوكيات متعصبة، هذا الوعى يؤكد ويسترجع ـ خصوصًا فى مواقف الصدامات الدامية ـ سواء ما تم فى تاريخ مصر الوسطى بحسب المؤرخ قاسم عبده قاسم، أو فى حقبة السبعينيات، والمواجهات المسلحة الموجهة ضدهم من بعض

الجماعات الإسلامية المسلحة؛ حيث رسخت تلك اللحظات هذا الوعى السلبى، ولا نختلف على تصوير هذا السلوك فى الكثير منه فى إطار رد الفعل من جانب بعض الأطراف المسيحية، لكن بات مهما إعادة رصد بعض المواقف والسلوكيات، حتى نفهم ونفرق ما هو فعل وما هو رد فعل، وما هو اختيار لدى الطرفين، وكل طرح له تأثيره.

مفهوم الجماعة الوطنية هو الإطار الذى يجب أن تتحرك فيه أى مناقشة تخص شئوننا، سواء على المستوى الإسلامى أو المسيحى؛ من المهم أن تنحاز هذه السطور لمفهوم الجماعة الوطنية بوصفه المعبر الحقيقى عن حالة التعايش المصرية، والمدخل المناسب للتعامل مع مكوناتها وأوزانها.وبالتالى يجب أن يتم التعامل مع المكون المسيحى بمؤسساته باعتباره شأنًا وطنيًّا، وكذلك المكون الإسلامى مؤسساته وتياراته الحركية هى شئون وطنية ليس هناك طارئ أو ضيف داخل تلك المكونات، المتداخلة مع بعضها البعض، ولا مجال لـ «إما أو».

- ١ -

كان لدى إحساس عميق بضرورة تعرفى على شخصية المسيح. درست سيرته من أدبيات شتى، لكن للقرآن معه شأن، خاصة ميلاد السيد المسيح؛ حيث الكون تسابيح وقلب مريم القانتة فى تبتل.. هل ننسى هطول الفجر الهادى الأنوس، وتساقط الرطب الجنى.. ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ ﴿٢٧﴾﴾.. ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.. ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

بذر المسيح الكلمة، فأحيا الموتى بإذن الله.. فإذا النور يومض وينادى الأنوار الإبراهيمية لتتجمع فى يقين يبحر فى الأعماق؛ لتصبح الأنفس متأهبة للدخول إلى عتبة التوحيد.

كان بسيطًا أضناه الشوق، وجميلا رقّة الوجد، أما كلماته ولمساته الإعجازية فهى مزيج بين هذا وذاك.. يألف الحياة وتألفه.. من القرآن تستطيع أن تشف صورته، لتجد نفسك أمام شخصية مأنوسة الطلعة كما يقول العقاد، ويحيط بها السلام من الميلاد إلى الممات إلى يوم يبعث حيًّا، تشرق روحه بالبر وتترشح من كلماته أنين الروح الغريب وطوبى للغرباء.. سريع الخاطر يقظ الكلمة رهيف العبارة.. وهى إما تشخص داء أو تصف دواء ويقدمها فى بلاغة مدهشة كأنها قوارير من روح وريحان.

نشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور، ولبساطته الشديدة كان الاستغراب من اختياره مبلغًا عن الله، نفس الكلام واجه كل نبى وذات السؤال :لماذا اختار الله هذا البسيط للرسالة؟

عالم الاجتماع ماكس ڤيبر يرى أن الله لم يختر نبيًّا من طبقة رجال الدين بل من البسطاء.

كان يقول (السبت للإنسان ولم يجعل الإنسان للسبت)، حيث زالت عبادة الأيام وأبقى عبادة الواحد.. كل الأيام له.. لا لعبادة المواسم، وهذا أبلغ نقد للشكليات.

كما أنه كان نقطة افتراق بين عالمى اليهود تجار الدين والأسرار، والرومان تجار الدولة والاستقرار (مملكتى ليست فى هذا العالم).. كان ضد الشراكة بين التاج والمذبح.

(من أخذ السيف بالسيف هلك) فالمسيح على مذهب ابن آدم الأول ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾، لكن الكنيسة أشعلت باسم المسيح حربًا صليبية دامت ١٧١عامًا، ومحاكم تفتيش لمدة سبعة قرون، فتنوا فيها المؤمنين والمؤمنات، وعندما يموت الدين تحيا الطقوس، وبتوارى الإيمان تطفو العصبية الدينية والتى باسمها يحال بين الإنسان واختياره، وتمثل مسرحية تسخر من الرسول، ولأجلها يرد مجنون بطعن راهبة مسنة ويقتل مسيحى مسلمًا أراد التوسط لإنهاء فتنة، وتحرق كنائس وصلوات، وبدعواها يحرق السنة والشيعة مساجدهما، وتقطع المصاحف..

مجرد أجساد ذات خلايا عصبية تنتظر التحريض لينطلق مركب الشراسة، وإذا ماتت الفكرة بزغ الصنم، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان كما يقول المسيح.. إنما بالمعانى والأفكار، كما يرى مالك بن نبى.

يوم السبت وقف المسيح يعظ، فقرر رجال الدين أنه خالف الشريعة؛ لأنه يجلس إلى الأقذار، وأنه يمارس العمل يوم السبت، وكان جوابه: إذا سقط خروف لأحدكم فى النهر يوم السبت أيتركه أم ينقذه؟ أو ليس الإنسان أهم من الخروف؟ إنه قذر فى أعينكم ومريض فى عينى. أنا فى خدمة المرضى وليس الأصحاء.

الانحرافات أمراض اجتماعية، ويحتاج المريض إلى العلاج قبل العقاب. والعلاج على يد المسيح انطلق من ضرورة تحرير الإنسان من جذبة الأرض بصدمة روحية قوية.

كل هذا يجعلنا نقترب كثيرًا من مفتاح شخصية المسيح وهو الوداعة (طوبى للودعاء

الرحماء)، فالرحماء يرحمهم الله، ومن لا يَرحم لا يُرحم، ورحمة الله وسعت كل شيء كما يقول القرآن، وشمسه تشرق على الأشرار والأبرار كما يردد المسيح.

حتى المسيحية المعاصرة مؤسسة على قاعدة الحب المطلق كما يقول «متىّ المسكين»، وهو مفترض حب للجميع دون النظر للديانة، نفس القاعدة فى الإسلام، ولكن التأسيس للعدل المطلق كما يقول الشيخ هانى فحص ولو على حساب الأقربين.. فكيف يقتتل العدل مع الحب ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

يقول المسيح: «أيها السامعون، أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، ادعوا لمن يسيئون إليكم. من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر. ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك، وكل من سألك فأعطه. ومن أخذ ما فى يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم اصنعوه لهم أنتم. وأى فضل لكم إن أحببتم الذين يحبونكم؟ إن الخطاة ليحبون من يحبهم.. بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم.. إن أخطأ أخوك فوبِّخه، وإن تاب فاغفر له، وإن أخطأ إليك سبع مرات وتاب إليك سبع مرات فتقبل منه توبته».

لم يؤسس المسيح[1] كنيسة ولا الحواريون، إنما أسسها بولس ولم يكن حواريًّا، ولم يلتق بالمسيح كان المسيح ـ كما يقول المؤرخ ويلز ـ أشبه بصياد أخلاقى. اعتزل السلطة وتنحى عن ميدانها إلا أنها لم تتركه كما يقول العقاد؛ حيث أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة.. لا سيما سلطة الدين قبل كل شيء، الخطر من ذلك الداعية المحبوب.. وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد.. ووقع الاشتباك الحتمى بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والعقوبة، وبين دعوة شعارها التوبة والغفران.. إما المؤسسة.. وإما المسيح.

ـ ٢ ـ

كنت دائما أتساءل: هل ثمة فرق بين تدين وتدين؟ هل للتدين أنماط وتجسدات تختلف بحسب الظروف والملابسات؟ متى تنشط موجات التدين؟ ومتى تخفت؟ لماذا ينتعش نمط تدينى معين فى فترة ما ويتوارى نمط آخر؟ ولماذا يفضل البعض التدين الحركى فى فترة ما ثم ينصرفون عنه فى فترة أخرى..؟.

من المهم أن نعرف أن الظواهر الدينية لها جذرها الكتابى والنصى، ولكنها لا تنكشف إلا فى

(١) استفاد الكاتب كثيرًا من تأملات الكاتب السورى «خالص جلبى» الدينية والروحية.

أجواء اجتماعية وثقافية، وعندما يتجلى الدين فى تلك المكونات يصبح من المهم دراسة الوعاء الحاضن للظاهرة الذى يوجه مساراها ويجسد تجليها، سواء كانت فعلا أو ردًّا لفعل.. ومصر منذ أكثر من ٤٠ عامًا واجهت موجات من التدين، يبدأ بموجات روحية شديدة الانفعال، ثم تستقر فى تدين عقائدى منظم قائم على الحشد، ثم يدخلان فى مرحلة ترشيدية تقنن فيها الخبرة والرحلة الدينية.. هو ليس تصنيفًا حديًّا بل متداخلا أحيانًا، لكن هذا لا يمنع من تمايز وسطوة لنمط تدينى على نمط آخر، ويمكن رصد أنماط من التدين بدأت أولى معالمها قبل «نكسة ٦٧» بقليل.. وهذه السطور تستعرض وتتقصى تحولات موجات التدين فى الشارع المصرى فى تلك الفترة.

فى يوم الثلاثاء ٢ أبريل الموافق ١٩٦٨م، تكرر حدوث ما يعرف بظاهرة العذراء على جدران وقباب بعض الكنائس الأرثوذكسية، وصاحب هذا الأمر ضجة عارمة، مست الرأى العام، أدت إلى نزوع القيادة السياسية نحو هذا الولع؛ فقام الرئيس الراحل عبد الناصر بزيارة لكنيسة الزيتون تحريًّا لظهور العذراء، داخل حرصه الدينى العام الذى شاب بعض سلوكياته السياسية فى تلك الفترة، فى الصلاة بمسجد الحسين وحضور بعض المناسبات الدينية. قال البيان البابوى الصادر فى ٤ مايو من نفس العام: «صاحب هذا الظهور أمران هامان : **الأول**، انتعاش روح الإيمان بالله والعالم الآخر والقديسين، **والثانى** إشراق نور معرفة الله على كثيرين كانوا بعيدين عنه، مما أدى إلى توبة العديد وتغير حياتهم». وعندما سئل الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى وقتها عن سبب ظهور العذراء قال: «لأجل تعزية المصريين فى محنتهم» فى تلك الآونة عاد رفات مارمرقس الرسولى من روما، وفى احتفاء مهيب دفن فى القاهرة، يتوج هذا النزوع الروحى الذى دب فى الكنيسة.

وفى نفس الفترة، كان السوسيولوچى «سيد عويس» عاكف على دراسة وتحليل ظاهرة إرسال الرسائل إلى الإمام الشافعى وهى ظاهرة تفجرت فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة، وخرجت نتائج عويس، التى حللت مضمون تلك الرسائل. إنها تهدف إلى تحقيق الآمال، وتخفيف الآلام والمظالم.

وعلى المستوى الحركى كان سيد قطب قبل ذلك بسنوات قليلة يحذر البشرية فى معالمه من الهاوية، وأن المجتمعات المسلمة دخلت فى نفق الجاهلية، ولا خلاص إلا بالقاعدة المؤمنة النقية.. وكان طبيعيًّا ـ بعد ذلك بقليل ـ أن يذهب الشيخ عبد الحليم محمود كما أشيع حينها للرئيس السادات ليبشره بالنصر بناء على رؤية من الرسول ﷺ.. كما تزعم الروايات.

بدا أن ثمة نزوعًا نحو السماء، يخلب لب الجميع، كانت نكسة ٦٧ ضربة عسكرية وروحية أيضًا، أحدثت فراغًا وانكسارًا، وتفكك اليقين وانقشعت الأسطورة، وضاقت الأرض بما رحبت، أصبح مهما الارتهان بمثل أعلى لتجاوز إحباطات الواقع وانتكاساته، وتم تجديد النضال من أجل عقيدة أوضح من الوطن، وانتهاج رسالة أسمى من النهضة، لا سيما أن هذا الارتهان يجعل الفرد يعيد قلب العلاقة بالمحيط ويتبادل معه الدور، ليستهوى الكومبارس دور البطولة، أدان الجميع سلطة مستبدة ومجتمعًا فاسدًا وضالا، مما أدى إلى هزيمة كبيرة، والحل الإسلام أو الكنيسة وجماعة من المؤمنين نقية الشعور فى مجتمع ملتبس كما يقول سيد قطب، أو مجتمع طاهر داخل صحراء شاسعة، كما فعل شكرى مصطفى.

لجأ الشعب ساعتها للدين، لم يكن أمامه مشروع أو بديل آخر سياسى أو ثقافى، كان الدين والتدين ضرورة، بل والبعض يظن أن ذلك تم فى المجال الإسلامى، ولكن فى نفس التوقيت، بدأت تلوح بوادره عند الكنائس المسيحية بكل طوائفها، فى بعث روحى شديد، فكان «درس الجمعة» داخل الكاتدرائية فى العباسية ذا أهمية كبيرة فى التثقيف القبطى، وصار مناسبة مهمة فى حياة الكنيسة القبطية، وكان الألوف يتقاطرون لسماع أسقف التعليم الأنبا شنودة، الذى صار كاريزما للشباب القبطى خاصة بعد عام ١٩٦٧م؛ إذ كانت عظاته تعالج الجوانب الاجتماعية والسياسية فى قالب دينى. وتضخم لدى المتدين العام الحس الخوارقى والغيبى واليقين السماوى الشديد، فمثلا فى الإيمان الأرثوذكسى يؤمنون بالشراكات مع القديسين والراحلين، وأن العلاقة لم تنته، وبالتالى مثل هذه الظواهر كثيرًا ما يتم تناقلها، الأمر مختلف لدى البروتستانت، وكل قدّم خلاصه المختلف، وعَمَّقَ الراحة المنشودة فى وجدان مريديه، صار الترابط ليس مع مجموع الأمة بل داخل جماعة صغيرة منسجمة قليلا منعزلة أكثر.

ومع بداية عقد السبعينيات، بدأت مرحلة العقيدة، صار المسرح معدًا للجيل الجديد فى الكنيسة والحركات الإسلامية، فقد تغيرت القاعدة الاجتماعية، وسيطرت على المشهد وجوه شابة مثقفة، استفادت من التدوير الاجتماعى الناصرى؛ وتبدلت تركيبة القيادة داخل المجتمع المصرى. ظهرت مقولة «لن يصبح الأقباط أيتامًا بعد اليوم» عنوانًا لتلك المرحلة فى حياة الكنيسة المصرية؛ حيث بدأت عملية التوحد بين الكنيسة وشعبها تتجسد فعليًّا فى حيز الواقع تغذيها غريزة الاحتماء والأمان؛ لتصبح خط الدفاع الأول.

صاحب هذه التغيرات الهيكلية تغير مناخى عام؛ حيث صار الدين هو الملاذ الوحيد

للمصريين الذين حولوا أنظارهم تجاه القيادات الدينية الجديدة من أجل أن تمارس استحقاقات المرحلة، وارتفعت وتيرة الفخار بالقساوسة الذين لا يخافون ويدافعون عن العقائد سرًّا وجهرًا، وانتشرت أسماء القديسين المضطهدين والمقاومين.

كانت معالم التدين فى تلك المرحلة حركيًّا، والعمل وسط الشباب والحركة داخل الجامعة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكل دين وله حركته، وله تفسيراته الحركية الخاصة، فكانت لجنة التوعية الدينية الطلابية الإسلامية، والأسر القبطية، والأكشن جروب البروتستانتية، وكل حركة بقدر ما هى محافظة هى سلفية أيضًا، كان غالى شكرى يلاحظ أن جماعة الأمة القبطية لم تنته ولم تنفصل عن ذهنيات بعض الأقباط، ويرى أنها ظلت وجدانًا هائماً، وتبحث عن البدائل للتواجد والتجسد، وهى تتوارى خلف أى جماعة انعزالية؛ حيث يعاد إنتاجها من جديد، وهو ما ظهر جليًّا فى خطاب أقباط المهجر فى السبعينيات .

وهو تدين وعظى روحى شديد الانفعال نشط فيه عدد من الوعاظ أمثال، كشك، والمحلاوى، وزكريا بطرس، ومنيس عبد النور، يقدمون عددًا من الشعارات والتفسيرات الدينية حول الخلاص والتوبة والفلاح بالعودة إلى الله، أو الامتلاء بروح القدس، أو التكريس الكامل لله، وعظ هدفه إزاحة قلق الجماهير وتوترها .

وهو تدين شبابى يقوده شباب مع الشباب وازدهرت فى تلك الفترات المعسكرات الروحية لدى الإسلاميين والمسيحيين عبر المعسكرات والمؤتمرات التى كانت تقيمها الكنيسة الإنجيلية من أجل الشباب فى بيت السلام بالعجمى، والذى لعب دورًا كبيرًا فى هذه الصحوة؛ حيث كان يختلى الشباب مع القادة الدينيين من أجل النهوض بهم روحيًّا وثقافيًّا.

وهو تدين المواجهة العنيفة الذى برزت فيه التيارات الجهادية، ورموزه المطورة لأفكار سيد قطب ومن رموزه المتطرفة، صالح سرية، وحزب التحرير، وجماعة الفنية العسكرية، وعبد السلام فرج وسالم رحال، وعبود الزمر، وازدهار تدين خلاصى حالم «مهدوى» جذرى الرؤية والوسيلة. وفى عام ١٩٧٢م، ولعلها المرة الأولى التى تحرك فيها الأقباط فى مظاهرة من ٤٠٠ شخص، منهم ١٠٠ من رجال الكنيسة بعد أن اتفق مجمع الكهنة بالقاهرة على إقامة الصلوات بمقر الجمعية التى أحرقت بالخانكة سيرًا على الأقدام مرددين التراتيل، وقال البابا: «قررت ألا ترانى الشمس آكلا أو شاربًا حتى تحل المشكلة»، وكان اللافت هو التعبير بالاحتجاج من خلال طقس دينى، وتلك كانت بداية ترانيم الاحتجاج البابوى التى تكررت فى مسيرة البابا شنودة..

-٣-

ومن ثم، مر التدين فى الستينيات والسبعينيات من خلال نافذة الروح الصاعدة، ثم العقيدة وفى الثمانينيات والتسعينيات بات التدين فى معظمه يدخل فى عملية الترشيد، يعود ثانية إلى الأرض، والتخلص من الخيال والأسطورة ويدخل فى مرحلة التقنين والوضع، ظهر على المشهد القبطى حركة أسقفية الشباب، التطور الطبيعى لحركة مدارس الأحد بقيادة الأنبا موسى وخطابه الدينى الإرشادى الذى يعيد شرح ما استغلق على الشباب من أمور اللاهوت، فإذا كان خطاب البابا يربط الشباب بالكنيسة، فإن الأنبا موسى يحاول ربط الشباب بمتغيرات العالم، واحتلت قضيتا الاغتراب والانتماء مكانًا بارزًا فى نصوصه وعظاته كما يقول السوسيولوچى أحمد زايد .حاول إبان أزمة البابا مع الدولة أن يعيد تجسير الفجوة بين الكنيسة والنخبة المثقفة،أسس أسقفية الشباب، ومن خلال مجموعة من الشباب ـ أبرزهم المفكر والباحث سمير مرقس، ومجموعة العدالة والسلام الكاثوليكية، والأساتذة نبيل مرقس وچورچ عجايبى، وعشرات آخرون ـ بدأت تتجدد شرايين الكنيسة والجماعة القبطية بعمل ثقافى حوارى يتحاور مع قضايا العالم المعاصر بشكل مباشر، وبدأ تأسيس الخطاب الدينى الحقوقى المكافح من أجل المواطنة وفق الجماعة الوطنية، الذى قاده هؤلاء الشباب ورعاه المستشار وليم سليمان قلادة العائد من أرضية اليسار إلى الدين مع عودة المستشار طارق البشرى وعدد من المفكرين «التراثيون الجدد» كما سماهم البعض، وظهرت كتابات الدكتور محمد عمارة، وعادل حسين، وفهمى هويدى، ود. المسيرى، ومدرسة أسلمة المعرفة، وتيار المعهد العالمى للفكر الإسلامى، وشركات توظيف الأموال والاقتصاد الإسلامى، وهى التغيرات التى أثرت على التيارات الدينية الإسلامية، فاتجهت نحو الواقعية والعقلانية التنظيرية، لا سيما مع تحولاتها نحو العمل السياسى والنقابى، وشهدت ذروتها مع تأسيس حزب الوسط .وهو ما واكب تأسيس القس صموئيل حبيب منتدى حوار الثقافات داخل الهيئة القبطية الإنجيلية فى بحث عن دور وأرضية للقاء القادة الدنيين والفكريين لمناقشة قضايا الدين والتنمية والعنف والمرأة، وإقامة المؤتمرات والندوات المتخصصة.. وعرف المجتمع الإنجيلى ليس فى صورته المنعزلة الروحية بل فى تدين اجتماعى منفتح،وهى الفترة التى قويت الجماعات الدينية العنيفة فى عراكها مع الدولة، وشهدت جولات دامية شديدة. وردت الدولة بقوة ونجحت فى الإحاطة بتلك الظاهرة، انتهت بالمراجعات للعمليات الجهادية وللمقولات المؤسسة للعنف والتكفير.

- ٤ -

ومع نهاية التسعينيات، تجددت لحظة تاريخية وجيل جديد من الشباب نشأ فى مدرسة الحياة الرغيدة، وانخرط فى أسلوب معيشى مختلف عن الأجيال السابقة، ولديه حاجات روحية ونفسية عميقة.. وفى الوقت نفسه، هم شباب ذوو جرأة وثقة بالنفس وأذكياء ولا أحد يخاطبهم، وهنا يمكن التركيز على نموذجين من الدعاة الجدد اللذين نجحا فى مخاطبة تلك الاحتياجات ..هما القس الإنجيلى سامح موريس، ود. عمرو خالد.. يمثلان موجة من التدين الليبرالى داخل مرحلة الترشيد والنظام.

- ٥ -

وهنا يبدو السؤال مع هذا التوالى فى ظهورات العذراء: فى أى موجة نحن..؟ هل نحن نعيش فى مناخ قريب مما حدث فى فترة النكسة وما بعدها؟ وعندما ندفع بالسؤال فى عمق الرائى، يتحول المشهد من الغيب إلى المشهود، فليس المهم هو حقيقة الظهور من عدمه، بل الأكثر أهمية حقيقة المشاهد، الناس شاهدوا العذراء، هم يصرون على ذلك، ولا تؤكد المشاهدة أنها ظهرت، لكنها تؤكد أننا أمام مُشاهد لديه احتياج لمعجزة، وعطش لدعم روحى واجتماعى وهذا الاحتياج هو الذى أدى لهذه القناعة، هل هناك ثمة أزمة روحية شديدة تمس الكيان المصرى؟.. كما يتساءل الباحث العراقى فاضل الربيعى. ما وجه الشبه بين أيام ما بعد ٦٧ والآن؟... بدأت الظاهرة روحًا فى الستينيات ثم عقيدة فى السبعينيات ثم نظامًا فيما بعد ذلك،عادت الروح من جديد بظهور العذراء، مع أن المسيح قال: «طوبى لمن آمن ولم ير»....

هذه رحلة سفر وتأمل وكتابة ودراسة لاتجاهات فكرية ودينية داخل الجماعة الدينية المصرية المسيحية والإسلامية على مستواها الدينى والمدنى بغية الوصول إلى إطار ونموذج تفسيرى يجعل من المسألة الدينية أمرًا مفهومًا ومنطقيًّا، ويضع ظاهريتها رهنًا بالعوامل المحيطة السياسية والدينية. كما تحاول هذه الدراسة أن تدرس خيارات المؤسسة الدينية المسيحية ومساحات تحركها داخل المجال العام، ونمط العلاقة الفاعل حاليًا بينها وبين الحُكم والجماعات السياسية والدينية الإسلامية. كما تقترب الدراسة تحليلا وتفسيرًا من نماذج لشخصيات دينية مؤثرة فى المزاج العام، أى أن هذه الدراسة تحاول مراقبة صنع اتجاهات الخطاب الدينى فى إطار الخطاب الوطنى العام .. لكن إذا كان هناك من شكر فيجب أن يكون موصولا لعدد من الشخصيات

التى أثرت فى اتجاه هذا الكتاب ولعبت دورًا فى تشكيل الكثير من مادته، مثل المستشار طارق البشرى، الذى يظل الموجه والمرجع لجيل من الباحثين والكتاب، والدكتور رفيق حبيب الذى لولاه لاختلت نسب وأوزان فى تحليلات مادة هذا الكتاب، والأستاذ سمير مرقس، ورؤاه المهمة وحوارته المفيدة لمن يطلب وعيًا فى النظر لشئون المواطنة وانتماءً مخلصًا للثقافة الوطنية، والأستاذ هشام جعفر الذى راجع بعض هذه الدراسات ونقحها لا سيما فيما يتعلق بحياة ومشاريع المفكرين الإسلاميين، ولا أنسى زوجتى المخلصة اعتذارًا عن انشغالات وخروجات تحملتها من أجلى، أما أمى فدعواتها زاد لاينقطع ومدد لا ينفذ.

***